كالسماء ؟ هذه هي المشكلة الوطنية الكبرى، ملأ النشيد بذكرها، وهذه هي آمال الوطن ومطامحه ، والله المستعان !

***

وباقي النشيد لا يختلف كثيراً عما ذكرت منه ، على حين أن النشيد يجب أن يكون موضوعاً على لسان الشعب ، وأن يكون قوي العبارة، خالياً من الحشو، واضحاً كل الوضوح ، صالحاً لكل زمان ، معبراً عن آمال الشعب وآلامه ومطامحه ، مشيراً بخوته وحماسته ، مشيراً إلى ماضيه وأمجاده ، وجمال أرضه ودياره ، إلى غير ذلك مما يوصل إلى الغاية من وضع النشيد ، وهي إثارة العزة الوطنية في النفوس ، وأن يختار له النغم القوي من غير خشونة ، العاطفي بلا ضعف . وحياة النشيد بلحنه وما يهز هذا اللحن من أوتار القلوب ، ويحرك من أعصاب السامعين ، فإذا كان لنا نشيد يشتمل على هذا كله ... وإلا فلا تقولوا : لنا نشيد ! !

علي الطنطاوي

٣ ـ الزندقة

في عهد المهدي العباسي

الأستاذ محمد خليفة التونسي

الشعوبية:

« أكل كبدي عمر »

« الهرمزان »

« وأبي كسرى علا إيوانه أين في الناس أب مثل أبي »

« مهيار الديلمي »

« أنا ابن الكارم من آل جم وطالب إرث ملوك العجم »

« فقل لبني هاشم أجمعين هلموا إلى الخلع قبل الندم »

« وعودوا إلى أرضكم بالحجاز وأكل الضباب ورعي الغنم »

« الموبذ »

« بهاليل غر من دؤابة فارس
إذا انتسبوا لا من عرينة أو عكل[1] »

(١) عرينة وعكل قبيلتان عربيتان يرمز بهما الرستمي إلى الجيل العربي كله

هو راضة الدنيا وسادة أهلها
إذا افتخروا لا راضة الشاة والإبل

« أبو سعيد الرستمي »

« عاج الشقي على ربع يسائله وعجت أسأل عن خفارة البلد »

« يبكي على طلل الماضين من أسد
لا در درك قل لي : من بنو أسد ؟ »

« ومن تميم ومن قيس ولفهما ؟
ليس الأعاريب عند الله من أحد ! »

« أبو نواس »

***

أشرنا في المقال الأول (الرسالة — العدد ٦٣٧) إلى أن كره الفرس العرب بدأ منذ وطئت أقدامهم أرض فارس في عهد عمر بن الخطاب ، وأن الهرمزان كان — حين مقامه بعد الأسر في المدينة — حاقداً على عمر ، وأنه حين وفد سبي جلولاء إلى المدينة كان يمسح على رؤوسهم ويقول : « أكل كبدي عمر »

وأشرنا في ختام المقال الثاني[1] إلى أن هناك صلة بين الشعوبية والزندقة ووعدنا هناك ببيان هذه الصلة ، وها نحن أولاء نوفي بما وعدنا .

على أننا لسنا هنا في صدد الكلام المفصل في الشعوبية وكل ما يتصل بها ، بل همنا أن نعرض بالإيجاز لما يوضح لنا أسباب الزندقة في عهد المهدي العباسي وآثارها وحقيقتها دون تعرض للشعوبية وما يتصل بها من سائر النواحي الأخر .

في زمن النبي عليه السلام بدأ بتوجيه كتبه إلى الملوك والأمراء في شبه الجزيرة العربية وفارس وبلاد الروم ، وفيه توجهت بعض البعوث لمحاربة بلاد غير عربية ، وفي زمن أبي بكر بعد انتهائه من حروب الردة انطلقت الجيوش العربية الإسلامية شرقاً وشمالاً تطرق أبواب مملكة فارس والروم ، واستطاعت أن تستولي على بعض بلاد الدولتين ، وما كاد عمر يلي الخلافة حتى عبأ الجيوش وقذف بها الدولتين فدك مملكة فارس دكا ، وفيها انسحت جيوش قائده الأحنف بن قيس حتى بلغت نهر جيحون[2] ، وكاد

(١) الرسالة : العدد ٦٤١

(٢) انظر في بيان مواقع الأماكن التي ورد والتي سيرد ذكرها في هذه المقالات — مصور الممالك الإسلامية والمعجم الذي وضع للكلام في البلاد التي ذكرت فيه للأستاذ أمين بك واصف .

يعبر النهر فى مطاردته يزدجرد ملك الفرس لولا أن نهاه عمر عن عبوره اتباعا لسياسته المشهورة التى تقضى ألا تكون بينه وبين جنوش المسلمين مياه ، وفتحت جيوش المسلمين فى عهده الشام ومصر وقد كان القطران خاضعين لملكة الروم .

كان يسكن هذه البلاد أقوام من أجيال مختلفة لهم ديانات ونحل شتى وكان منهم من رضى عن الفتح الإسلامى لبلاده ، ومنهم من قابله بالحقد والكراهية ، فقد كان معنى هذا الفتح سيطرة الجيل العربى على البلاد التى فتحها ، وسيطرة الدين الإسلامى على أديان أهل هذه البلاد .

ومن الشائع أن المسلمين فى هذه الفتوح إنما كانوا يرمون إلى نشر الإسلام تنفيذاً لفريضة الجهاد فى سبيل الله ، ولكن هناك أمراً ليس بالشائع وإن يكن غرض آخر من الفتوح ، هذا الأمر هو التوسعة بهذه البلاد المفتوحة على سكان شبه الجزيرة من العرب : هو الهجرة من شبه الجزيرة إلى البلاد المفتوحة بعد أن ضاقوا به ، ونصيحة عمر بن الخطاب لجنوده الذين وجههم إلى الفرس تؤيد هذا الرأى ، فالفتوح كانت موجة من موجات الهجرة الكثيرة من شبه الجزيرة إلى ما جاورها من البلاد ، لكن هذه الموجة تمتاز بأنها تحمل ديناً وتدعو إليه .

ونحن حريون أن ننظر إلى هذا الفتوح من هاتين الناحيتين لا من ناحية واحدة ، وألا ندعى لأنفسنا من الفهم للاسلام والعصر الذى ظهر فيه أكثر من فهم عمر الذى كان من أقرب الصحابة إلى النبي وأعظمهم فقها عنه .

ولقد نظرت الأمم التى دانت للاسلام إلى الفتوح العربية على أنها فتوح أمة تنشد لنفسها السلطان على غيرها من الأمم ، وتنشد لدينها السلطان على غيره من الأديان : لم ينظر كثير منهم إلى أن هذه الأمة العربية قد جاءت بدين عام للعربى وغير العربى ، وأنها تفتح بلادهم لتدعو إليه ، بل رأوا أنها فتحت بلادهم للتسلط والاستعمار ، وإن كان حكمها خيراً من حكم سواها ، وأنها تقصد من الدعوة إلى دينها الدعوة إلى سلطانها الدنيوى .

ولقد ساء الفتح العربى كثيراً من الأقطار المفتوحة ، ولا سيما فارس ، ولذلك سببه الذى لا بد لنا أن نكشف عنه .

كانت بلاد الشام وبلاد المغرب تحت سيطرة الروم ، فلم يكن من نتيجة الفتح العربى إياها إلا أنها استبدلت سلطان العرب بسلطان الروم ، ووجدت تحت الحكم العربى من العدل والرغد ما لم تجد تحت حكم الروم ، فاستكانت إلى العرب واطمأنت إلى حكمهم حتى فقدت قوميتها ولغاتها .

وكانت فارس قبل الفتح العربى بلاداً مستقلة ذات سيادة وحضارة ومملكة ، وكان لها سلطان حتى على العرب ، وكانت تحكم قبل الإسلام بلاد اليمن والبحرين والعراق حتى أن كسرى أبرويز حين تلى عليه كتاب النبي الذى يدعوه فيه إلى الإسلام ، غضب ومزق الكتاب وكتب إلى عامله على اليمن (باذان) يأمره بأن يأتيه برأس هذا الرجل الحجازى ، وكانت فارس تستعين بقبائل الحيرة فى حروبها مع الروم ، وتستعين بقبائل العرب على صد المعتدين على حدودها من الروم والأعراب ، وعلى حفارة القوافل أثناء مرورها فى البلاد العربية ، بل لقد استعان بهرام چور برؤساء قبائل الحيرة فى الجلوس على عرش فارس بعد أبيه يزدجرد برغم أنوف المعارضين له من الفرس ، ولقد كانت لفارس ثقافة وحضارة ، وفى اللغة العربية كثير من الكلمات الفارسية دخلتها قبل الإسلام ، وفى سيرة ابن هشام أن النضر بن الحارث كان يقول لأهل مكة : « يحدثكم محمد بأخبار عاد وثمود ، وأنا أحسن حديثاً منه : هلموا إلى أحدثكم بأخبار رستم واسفنديار والأكاسرة » وقد عرف العرب المجوسية (الديانة الفارسية القديمة) ويقال إن بعض بنى تميم قد اعتنقوها .

ولم يكن لسلطان فارس مثيل قبل الإسلام إلا سلطان الروم ، وقد وقعت بين الدولتين حروب كثيرة شهد ظهور الإسلام أواخرها ، ويقول المقريزى : « إن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وصولة الخطر فى أنفسها بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب ، وكان العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً ، تعاظمهم الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة »

ما من شك فى أن الفرس كان لهم قبل الفتح العربى سلطان واستقلال ومملكة ، وأنهم كانت لهم سيادة على بعض البلاد العربية ، وأنهم كانوا يحتقرون العرب ، وأن بلادهم هى البلاد

الوحيدة التي كانت تتمتع باستقلالها ومملكتها وحضارتها عند الفتح العربي ، فلما فتحها العرب سلبوا استقلالها ومملكتها ونظمها ، ومن أجل ذلك تعاظمهم — كما يقول المقريزي — الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وأي مصيبة أعظم من فقدان استقلالهم على أيدي أمة كانت أقل الأمم خطراً عندهم . ومن أجل ذلك لقي العرب في إخضاع الأمة الفارسية من المشقات ما لم يلقوا في إخضاع غيرهم من الأمم (١) .

ولقد بقيت فارس تتطلع إلى الاستقلال تحت الحكم العربي من أول يوم دخلت فيه تحته ، وظلت موطن كفاح دائم بين الفريقين ، واستعان الفرس في مناضلة العرب بجميع قواهم : فاستعانوا بقوة الجيوش مرارا فما أفلحوا ، وظل العرب قابضين على نواصيهم لقوة عصبيتهم ضد عصبية الفرس ، وشجاعتهم أمام شجاعة الفرس ، فلما خانتهم قوة الجيوش حاولوا التمسك بلغتهم وحضارتهم ودياناتهم فخابوا بعض الخيبة وظفروا بعض الظفر : ذلك أن اللغة العربية غلبت على لغتهم لغناها ووجوب التعبد بها ، وغلب الإسلام دياناتهم بترك بعضهم دينهم خوفا من البطش أو تزلفا إلى الدولة الإسلامية أو إيمانا به ، ووهت ثقافة اللغة الفارسية كما وهت المجوسية ، وامتزجت الحضارتان ، وأناب كثير من العامة إلى الحكم العربي والدين الإسلامي الذي جاءهم به العرب واللغة العربية ، واختفت العصبية أول الأمر كثيرا ، ومما ساعد على اختفائها عندهم حسن سيرة الحكام في العهد الأول في الرعية وتنفيذهم أوامر الدين في معاملة المغلوبين بنصها وروحها ، فكان للمغلوبين ما للغالبين وعليهم ما عليهم فيما عدا الإدلاء ببعض المناصب ، ولكن العصبية لم تذهب — وإن اختفت — من رؤوس رؤسائهم وذراري ملوكهم بل بقيت متأججة يتناقلونها خلفا عن سلف ، وقد بدأ ظهورها يزداد منذ انقسام العرب بعضهم على بعض في أثناء الدولة الأموية ، وظهور العصبيات الجزئية القبلية التي اجتهد النبي وخلفاؤه ونجحوا في إخفائها ، وظهور التفرقة في المعاملة بين العربي وغيره ممن دخل في الإسلام عند الخلفاء والولاة ، واحتقار العرب الموالي عامة .

وأول ما بدأ ظهور العصبية الفارسية في فارس ، ففيها ضعفت أول ما ضعفت العصبية العربية لظهور العصبيات القبلية ، وقلة العناصر العربية فيها لقلة العرب واندماجهم مع الفرس بالتزاوج والتناسل واستقرارهم فيهم وبعدهم عن مواطنهم التي خرجوا منها .

ولقد ظهرت حاجة العرب إلى الفرس بعد الفتح العربي بقليل ، فقد انصرف العرب إلى الفتح والجهاد ، فغفلوا عما سواه ، كما يقول ابن خلدون في مقدمته ، وانصرف الموالي من الفرس إلى الأدب واللغة والفقه والنحو فأسدوا إلى هذه النواحي أعظم الخدمات ، وكانوا فيها المبرزين دون العرب ، ومما يؤثر عن الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ) قوله : « ألا تعجبون من هذه الأعاجم ! احتجنا إليهم في كل شيء حتى في تعلم لغاتنا منهم » وقوله : « العجب لهذه الأعاجم كان الملك فيهم فلم يحتاجوا إلينا ، فلما ولينا لم نستغن عنهم » .

ومما يحكى أن عربيا وفارسيا تناظرا بين يدي يحيى البرمكي ، فقال الفارسي للعربي : « ما احتجنا إليكم قط في عمل ولا تسمية ، ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا في أعمالكم ولا لغتكم حتى إن طبيخكم وأشربتكم ودواوينكم على ماسمينا ما غيرتموه » .

(البقية في العدد القادم) محمد عليفة التونسي

(١) في خطاب الأستاذ عبد الرحمن بك عزام أمين الجامعة العربية الذي ألقاه في أول اجتماعات الجامعة منذ شهور تعليل آخر لهذا الاختلاف بين فارس وسائر البلاد التي فتحها المسلمون وما كان من سخط الفرس على العرب واستكانة غيرهم هذا التعليل هو أن بلاد فارس كان يسكنها فرس ، وسائر البلاد كانت فيها عناصر عربية هاجرت إليها من شبه الجزيرة قبل الاسلام بقرون ، فعنده أن سخط الفرس سببه اختلافهم عن العرب وأن رضا غيرهم سببه اتفاقهم مع العرب في العروبة ولم أدرسه .